نحن والمستشرقون أيضاً

رد صاحب « المعرفة » على الدكتور حسين الهراوى

تغتبط « المعرفة » شديد الاغتباط بهذا الجدل الذى يقوم بين كل من الدكتورين : زكى مبارك وحسين الهراوى خاصاً بالمستشرقين ، وتغتبط أكثر بهذه المنافسة فى سبيل تحميس الحق ونصرته ، بل هى أكثر اغتباطاً حين ترى هذه المناقشة تدور رحاها على صفحاتها أولا ، وتنتقل إلى « البلاغ » ثانياً ، ومن ثم إلى « السياسة » لتعود آخر الأمر إلى صفحات « المعرفة » ، فتستقر ويستمر لظاها ، وتسير حرة دون قيد أو شرط من صاحب « المعرفة » الذى قد يكون من المفاجأة ـ وقد أبى الدكتور الهراوى إلا أن يشركه فى البحث ـ أن يصارحه بأنه لا يساهمه رأيه ، ولا يشاركه فكرته فى الانتقاص من قدر المستشرقين ؛ ولكنها حرية الرأى التى فى سبيلها نعمل ، وعلى مذبحها نقدم مالنا وهو خصاصة ، وجهدنا وهو ضئيل ، ونفوسنا وهى عزيزة ؛ فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر

وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسى تقاها أو عليها فجورها

ذلك هو الحق نقرره ، والواقع نبديه ، وقديماً قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الساكت عن الحق شيطان أخرس » ؛ وإذا كان تقديسنا لهذه الحرية يجر علينا فى أغلب الأحايين بعض ما نلقى من عنت واضطهاد ، أو إذا كانت تلك الحرية تسبب تنكر بعض الناس لنا ، فإنا ـ آخر الأمر ـ مغتبطون جد الاغتباط حين نرى أن ما نقرره من حق ويقين يلتمس طريقه إلى النفوس الطيبة فى صبر واتئاد ، وفى تريث وطمأنينة ، مما يدعو فى النهاية إلى استقرار الفكرة استقراراً مكيناً لا تزعزعه الأباطيل أو الترهات.

على ضوء هذا الذى تقدم نريد أن نناقش الدكتور الهراوى فى عتابه علينا فى نشر صورة الأستاذ مرجليوث والاشادة بذكره وعمله ، ونريد أن نتساءل عن مبلغ الصدق فيما أراد الدكتور أن يصم به صاحب « المعرفة » من رعاية للمستشرقين ، ومن تمجيد لهم ، ومن عمل على إذاعتهم فى غير عدد من أعدادها ؛ فصديقنا الدكتور الهراوى ـ فى رده على صديقنا الدكتور زكى مبارك ـ يعجب من صاحب « المعرفة » ، ويعتب عليه فى نشر صورة الأستاذ مرجليوث . ونشر فصل آخر عن المستشرقين الذين خدموا اللغة العربية ؛ وليس من شك مطلقاً فى أن هذا العجب أو هذا العتاب ـ إن صح التعبير ـ لا يستقيم مع المنطق ، ولا يتمشى والحق الصريح ، لأن « المعرفة » كانت وما تزال ـ منذ أول عدد من أعدادها حتى آخر جزء من أجزائها ـ شديدة الحرص على أن تكون حرية الرأى مكفولة على صفحاتها للجميع دون استثناء أو تمييز ، وهى مع حرصها على حرية الرأى لم تسود صفحة واحدة من صفحاتها بما يفهم أحد منه أنه تشيع لغير الاسلام ، أو تعصب لغير الشرق ، وتمسك بغير العربية ، حتى لقد رمى

صاحبها بالجمود والتعصب للقديم ، مما لا تتحرج عن ذكره أو تنفصل عنه .

ولعل الدكتور الهراوى يذكر أنا قلنا فى أول عدد من أعداد « المعرفة » ما نصه : « وستكون « المعرفة » معولا هداماً لبناء المذاهب المادية الالحادية ، ومبضعاً دقيقاً لبتر الفاسد من مذهبى النيوصوفية واستحضار الأرواح وغيرها من المذاهب المنتشرة فى أوروبا وأمريكا ، ومصلحاً مقوماً لغلطات بعض المستشرقين الذين وقعوا فى أخطاء علمية ، وتخيلوا فروضاً وهمية فيما كتبوه عن الشرق وعلومه ؛ ولسنا بهذا منكرين لهم فضلا ، أو جاحدين لهم نعمة ، وإنما الحق يقال ، إذ ليس الدخيل كالأصيل ، ورب الدار أدرى بما فيها . وسبيلنا إلى القيام بهذا الذى أخذناه على عاتقنا هو أن نأتى بما قرره هؤلاء وأولئك من قضايا وأوضاع ، نتولاها بالبحث والتمحيص ، والنقد والتحليل ؛ فما كان منها سليم المادة صحيحها أخذنا به ، وما لم يكن متفقا والحق نقضناه نقضاً علمياً خالياً من التعصب لرأى ، أو مشوباً بتحامل ما ، ليتبين الحق من الباطل ، ويتضح الصبح لذى عينين » (١).

وإذا كنا قد افتتحنا عملنا بهذا القول ، فذلك دليل ـ وأى دليل ـ على أنا لا نتساق مع المستشرقين فى التشيع لهم أو لغير ما نعتقده حقاً ويقيناً ، وهو فى الوقت نفسه حجة ناهضة نحسب الدكتور حين يرجع إليها يرى دعواه منهارة الأساس ، مقوضة البنيان.

واذا علم الدكتور أن الأستاذ مرجليوث كان أول معارض لنا فيما كتبناه بالجزأين الثالث والرابع من السنة الأولى عن كلمة « صوفى » فى الوقت الذى لم يعارضنا فيه إنسان ، وإذا علم أيضاً أن الأستاذ مرجليوث كاشفنا فى كتاب بعث به إلينا برغبته فى نشر اعتراضه ، وفى أنه يظن بل يعتقد أنا لن نسمح بنشره لأنه مخالف لرأينا ، وإذا علم أيضا بأنا كتبنا إليه نطالبه بارسال رده ، بل نلح فى ضرورة إرساله إلحاحاً ، وإذا علم أنا نشرنا ذلك الرد بنصه وفصه(٢) وأنا لم نتركه دون أن نقهر رأيه برد حاسم وردنا من الأستاذ لطفى جمعة ، فكفانا مؤونة الرد عليه(٣) ، وكان رداً حاراً نقد فيه الأستاذ مرجليوث نقداً مُراً ، ألهبه فيه بما يشبه أن يكون شواظاً من نار ، وقلنا فى تقديم ذلك الرد وفى دفاعنا عن الأستاذ لطفى جمعة : « إذا كان القراء يرون فى أسلوبه شيئاً من الشدة ، فرجع ذلك لا إلى تعصب فى الرجل كما يبدو لأول وهلة ، وإنما يرجع إلى يقين الأستاذ بما يقرر ؛ وقديماً قال أرسطو تلميذ أفلاطون : « إنى أحب أفلاطون ، ولكننى أحب الحق أكثر منه ».

إذا علم الدكتور كل ذلك استطاع أن يدرك فى سهولة ويسر أن دهشته وعتابه وعجبه أو ما شابه ذلك لا محل له ، اللهم إلا أن يكون متحاملا على صاحب « المعرفة » بالغ التحامل .

لقد أراد صاحب « المعرفة » أن يقف من هذا الجدل بين الدكتور زكى مبارك والهراوى موقف الحياد ، شأنه فى ذلك نفس الشأن فى كل جدل يدور على صفحات « المعرفة » بين اثنين ،

(١) راجع السنة الاولى: المجلد الاول من « المعرفة » ج١ ص ٤ . (٢) راجع المجلد الثانى من « المعرفة » ج ٧ ص ٧٨٢ . (٣) راجع المجلد الثانى من « المعرفة » ج ٨ ص ٩٢٤ .

ولكنه - وقد أحرجه الدكتور المراوي وأبى إلا أن يشركه فى زمرة الذين يسامون الإعجاب بالمستشرقين - يقول كلمة صريحة وهى فى جملتها لن تسره ، ولن تنال إعجابه ... ذلك أن صاحب « المعرفة » شديد التقدير لجهود المستشرقين الذين استطاعوا أن يؤدوا إلى اللغة العربية خدمات ليس فى مقدور أحد - إلا الدكتور - أن ينكرها عليهم .

لست أنكر يا سيدى أن لبعض المستشرقين فى بعض الأحيان مآرب وغايات وأطماعاً استعمارية ، ولكن ليس من الانصاف فى شيء أن ننكر إلى جانب ذلك ما لأكثرهم من فضل ، وما لهم من محاسن ، كما أنه ليس من العدل أن ننكر أن ذلك البعض فئة لا يعتد بها ونفر لا يؤبه به ؛ وما لنا لا نزيد الدكتور صراحة وجلاء ، فنقرر له - فى صدق ويقين - أن بعض أولئك المستشرقين قد عدل آخر الأمر عما توجهت إليه نفسه من كيد وشر للاسلام ، وقد انساق بحكم تذوقه للغة العربية إلى الدفاع عنها دفاعاً مجيداً ، وخدمتها خدمة تصعب على من رامها منا وتطول . !

وبعد ، فهل قرأ الدكتور ما كتبه كارليل عن محمد بن عبد الله ، وما ألفه نيكلسون عن التصوف الاسلامى ، وما صنفه عن العرب والعربية والاسلام ، وكل من : ماسينيون ، وما كدونلد ، ونولدكه ، وجولد سيهر ، ومارتى ، وفيشر ، وبراون ، وتوماس أرنولد ، وجيب ، وويدمار ، وجويدى الكبير ، وجويدى الصغير ، ولمانز ، وهارس خون ، وناللينو ، وصمويل لاى ، وبروخ ، ولازونى ، وكايتانى ، وجلارزا ، ولافونت ، وجسبار ، وكلسون ، وخانيكوف ، وهورج وكثير من هؤلاء أستطيع أن أعد لك منهم عشرات ، بل مئات ؟

هل قرأت يا سيدى ما كتبه هؤلاء عن العرب والاسلام ، وما يتصل بلغة من العرب أدب ، ونحو ، وصرف ، وتاريخ ... الخ ؟ وإذا كنت قد قرأت شيئاً من ذلك ، أفلا ترى معى أن المستشرقين قد أدوا إلى اللغة العربية خدمات ليس من الهين إنكارها ؟ ثم ألا يحق لنا أن نصارحك بأن للمستشرقين فضلا آخر لا يعد له أى فضل فى مئات الكتب العربية والموسوعات العلمية التى بعثوها من مرقدها ناشرين بها فضل العرب والعربية ، مخرجيها فى أحسن حلة وأدق طبع وأناقة . ثم أليس هؤلاء المستشرقون هم الذين أظهروا لنا « معجم الأدباء ، ومعجم ما استعجم ، وطبقات الأطباء ، وأخبار الحكماء ، وفهرست ابن النديم ، ومعجم البلدان ، وطبقات الصحابة ، وطبقات الحفاظ ، ومفاتيح العلوم ، والمقدسى ، والاسطخرى ، وابن حوقل ، والهمذانى ، وشيوخ الربوة ، وابن جرير ، وابن الأثير ، وأبى الفداء ، واليعقوبى ، والدينورى ، والمسعودى ، وأبى شامة ، وابن الطقطق ، وحمزة الأصفهانى ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وفتوح البلدان » ، وغير ذلك من كتب العلم ، والأدب ، والنحو ، والصرف ، والبلاغة ، والتاريخ ، والجغرافيا ، مما لا يقع تحت حصر ويتيه فى عده الكثيرون منا ؟

وما لنا لا نصارحك القول بأن محرر « المعرفة » قضى أكثر من سبع سنوات باحثاً منقباً عن الأصول التاريخية للفرق الصوفية فلم يتبين الحدود والأوضاع الصحيحة فيما طبعه العرب من مؤلفاتهم ، وإنما تبين بعضها فى كتب المستشرقين ، والبعض الآخر فى كتب العرب التى

طبعها المستشرقون أنفسهم ؛ أفليس هذا دليلا على أن أولئك القوم يخلصون فى بحوثهم الأدبية خاصة ، إخلاصاً بعيداً عن كل شائبة ؟

ثم أنتقل بك إلى الناحية الدينية ، فأقول لك إنها يجب أن تظل فى مناعة من النقد ، وفى حرمة وتقديس بعيدين عن الجدل والتجريح ، فللبحث الدينى قداسته ، وللبحث العلمى حرمته ؛ وليس على الباحث الدينى أن يتأثر الباحث العلمى ، كما أنه ليس على الباحث العلمى الحر أن يتقيد بالباحث الدينى ، خصوصاً إذا كان يبحث فى دين غير دينه ؛ وإلا أفأنت ترغم الناس على أن يعتنقوا ما تعتنق من دين ومن رأى وقد أبو الهداية والانصياع لمن سبقوك من قبل ؟ وهل تفرض على من يدرس اللغة العربية أن يعتنق دينها وهو الاسلام ، وقد أبى بعض العرب من أقاربه النبى اعتناق دينه ؟ أفتفرض إذاً على كل كاتب بالانجليزية أو الفرنسية أو اليونانية سواء أكان عربياً أم غير عربى أن يكون مسيحياً لأن تلك لغات الانجيل ؟ ثم لماذا لا تفترض معى عدول أولئك بعض المستشرقين عما كتبوه عن محمد بن عبد الله ذامين منتقصين ؟ إننى أستطيع أن أصارحك القول ـ ولى ببعض المستشرقين صلة وطيدة ـ بأن بعض هؤلاء قد عدل عن رأيه ، ولكن هناك ظروفاً وقوانين اجتماعية ومصالح مادية تدعوهم إلى الصمت والسكون ؛ ولعلك لا تجد فى هذه نكراً أو نقصاً لأقدارهم أو حطاً من مكانتهم ، فقديماً كتب العماد الأصفهانى إلى القاضى البيسانى يصف له مثل هذه الحال ، فقال : « إنه وقع لى شىء ، وما أدرى أوقع لك أم لا ؟ وهأنا أخبرك به ؛ وذلك أنى رأيت أنه لا يكتب إنسان فى يومه إلا قال فى غده : لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد ذاك لكان يستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك ذلك لكان أجمل . وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل النقص على استيلاء البشر » .

أفأنت بعد ذلك مقتنع أم ترجو المزيد ؟ إن المستشرق ـ أياً كان نوعه ـ لم يزد على كونه إنساناً تزدحم فى نفسه العواطف المتباينة ، وتمتلىء جوانحه بالرغبات المختلفة ، وله بعد ذلك عقله وقلبه ، وعاطفته وحسه ، وهو ككل إنسان فى الوجود له نزعته الدينية ، وله نزعته العلمية ، وله أن يحتفظ بروحه الدينى مهما يكن حظه من دراسة اللغات .

ونكرر قولنا بأن الدين شىء ، والبحث العلمى شىء آخر ، وإذا كان المستشرقون قد احتفظوا بمسيحيتهم أو يهوديتهم فى الساعة التى يدرسون فيها لغة القرآن ، فلن يقلل هذا من حظهم الرائع الذى قدر لهم أن يكونوا من رجال الطليعة فى الدراسات العربية الممتازة ؛ كما أن تعصبهم لم يضعف من عظمة القرآن ، أو يقلل من أتباعه .

وبعد ، فلتعلم يا سيدى الدكتور ـ إن لم تكن قد علمت من قبل ـ أن « المعرفة » أبعد الصحف عن أن تتملق زيداً ، أو تلتمس عطف عمرو ، أو ترجو نفع بكر ، وإلا لكان لها شأن غير هذا الشأن الذى تنتمى به ، ومنزلة غير تلك المنزلة التى تحل بها عن جدارة واستحقاق فى أرقى الأوساط الأدبية وأسمى المعاهد العلمية ، وحسبها أنها لا تخشى فى الحق لومة لائم ، وأن قد وضع لها صاحبها دستوراً لا تحيد عنه قيد أنملة ، ومنهجاً تستميت فى سبيل المحافظة عليه .

حسبنا الآن هذا القدر ، راجين أن يكون الدكتور قد اقتنع ، أو فليتفضل بالعودة إلى الميدان ، لأنا على الحق حريصون والسلام . ؟